الفصل الرابع والعشرون

«الأدب ـ الفن ـ القانون والشريعة»
وشيء عن العلوم والمعارف

1 ـ الخط الهيروغليفي وحل رموزه:

لكي يلمّ الدارس لحضارة وادي النيل بشيء عن آدابها المدوّنة وعلومها فإنه يلزم عليه أن يعرف الوسائل التي دوّنت بها تلك الآداب والعلوم، أي يتعرف على كتابتها لأن هذه الكتابة، مثل الخط المسماري، تدخل في صلب فهم اللغة والحضارة وليست من قبيل الحروف الهجائية التي يُستغنى عن معرفتها.

اشتهرت حضارة وادي النيل بخطها المشهور بالخط الهيروغليفي حيث يجده المرء في المآثر التي خلفتها تلك الحضارة ويحسبه نوعاً من الزخرفة والزينة الصورية. ولكن الواقع أن الخط الهيروغليفي يمثّل لنا أقدم الخطوط التي ابتدعتها الحضارة المصرية في تدوين شؤونها المختلفة، وقد نشأ ذلك الخط في مصر في أواخر ما سميناه بالعهد الحجري المعدني وفي بداية عهد السلالات، ويعزى نشوؤه، كما رأينا في الخط المسماري، إلى الحاجات التي استتبعت نشوء الحياة المصرية في وادي النيل. ولكن هناك فرقاً مهماً بين الخط الهيروغليفي والخط المسماري من ناحية الأصل. إذ إن أصل هذا الخط غير واضح وضوح أصل الخط المسماري الذي وُجدت أصوله البسيطة الأولى لما كان بهيئة صور تمثل الأشياء.

أما ما جاءنا من الخط الهيروغليفي إلى حال التأريخ فلا يمثل لنا بداية هذا الخط فإن أقدم نماذج جاءتنا عنه لا تمثّل لنا مراحل نشوئه الأولى وإنما

طور نضجه وانتقاله من الطور الصوري المحض إلى الطور الكتابي الرمزي. ولكن على الرغم من عدم وجود نماذج من الأطوار النشوئية الأولى للخط الهيروغليفي فالمرجّح عندنا أن ذلك الخط ابتدعه المصريون القدماء أنفسهم منذ السلالات الأولى[1] من المقابر الملكية العائدة إلى هذه السلالات، وأقدم نماذج منه ما جاءنا من عهد السلالة الأولى في النقوش المحفورة على نوع خاص من صفائح الحجر التي وجدت في «هيراكونبوليس» الواقعة بنحو (50) ميلاً جنوب طيبة، وأشهر هذه الأحجار المكتوبة ما يُعرف باسم حجر «نارمر» نسبة إلى «نارمر» الذي قلنا إنه كان أحد ملوك السلالة الأولى، ولعله أحد الملوك الذين أطلق عليهم اسم «منا» مؤسس هذه السلالة وموحّد المملكة المصرية المأثور.

وعلى الرغم من جهلنا بأبسط أطوار الخط الهيروغليفي فإن هذا الخط، قياساً على أقدم نماذج له، كان أصله صورياً، ثم تطوّر إلى ما سميناه بالطور الرمزي أي إن العلامات الهيروغليفية صارت تقوم مقام كلمات ومعان لها علاقة بأصل العلامة الصوري، وتطور الخط الهيروغليفي منذ أقدم الأزمان التأريخية إلى الطور الصوتي (ولعل ذلك بتأثير حافز الكتابة المسمارية) حيث استعملت العلامات بهيئة مقاطع لكتابة الكلمات المختلفة، وكانت هذه الطريقة شبيهة بطريقة الكتابة الهجائية إلا أنها لم تكن هجائية صرفة. فمثلاً خصّص المصريون القدماء مجموعتين من العلامات الصوتية الشبيهة بالهجائية، تتألف المجموعة الأولى من 24 علامة قوام كل منها حرف صحيح مقروناً به أي حرف علة من حروف العلة الموجودة في أصوات اللغة المصرية. فمثلاً الحرف (م) يمكن أن يُقرأ بهيئة «مو» أو «ما» أو «مي»، وينتخب حرف العلة اللائق بحسب القرينة في كتابة الكلمات المختلفة. والمجموعة الثانية مؤلفة من نحو (80) علامة هي علامات مقطعية صوتية شبيهة بالحروف الهجائية وقوام

---

(1) يرى بعض الباحثين احتمال أخذ الحافز على نشوء الخط الهيروغليفي من الخط المسماري. انظر ما ذكرناه سابقاً عن الموضوع، وانظر المرجع الآتي: .(The Legacy of Egypt, p.42)

كل علامة حرفان صحيحان مقروناً بهما (في الوسط أو في الآخر) أي حرف علة[1]. وبقيت الكتابة المصرية القديمة خليطة من الكتابة الرمزية والكتابة الصوتية المقطعية (الشبيهة بالهجائية) ولم تصل إلى المرحلة الهجائية الصرفة. ولكن حدث في شكل خطها تطورات وتبدّلات مهمة مما أدّى إلى ظهور جملة أنواع من الخطوط نوجزها على الوجه الآتي:

أنواع الخطوط المصرية:

توجد ثلاثة أنواع متميزة من خطوط الكتابة في حضارة وادي النيل هي بحسب ظهورها التأريخي:

(1) الخط الهيروغليفي (Hieroglyphic).

(2) والخط الهيراطيقي (Hieratic).

(3) والخط الديموطيقي (Demotic).

1 ـ الخط الهيروغليفي:

الخط الهيروغليفي هو الخط المقدس[2] الذي كان أقدم أنواع الخطوط المصرية القديمة وقد ظل في الاستعمال منذ أقدم أطواره (2900 ق.م) إلى نحو 100 ق.م.[3]، وظل محافظاً على شكله الصوري (أي شبه العلامات

---

(1) ففي المقطع (Tm) مثلاً يمكن قراءته بأوجه كثيرة مختلفة مثل T(a) m(a) وT(u) m(u) وT(e) m(e) وT(i) m(i) الخ. وتسمى مثل هذه العلامات بمصطلح (alphabeto-syllabic). حول أحدث البحوث والآراء في الكتابة الهيروغليفية راجع:

Gelb, **The Study of Writing** (1952).

وانظر كذلك:

The British Museum Guide (1930).

(2) مصطلح هيروغليفي كلمة يونانية مركبة من كلمتين كلمة «مقدس» (hieros) وكلمة حفر أو نقش على الحجر (glyphein).

(3) ظل الهيروغليفي في الاستعمال قليلاً أزماناً أخرى، وبإمكاننا تأريخ بطلان استعماله وموته نهائياً في القرن الثالث للميلاد.

المستعملة بالصور)، واستعمل لنقش المآثر والكتابات المقدسة في المعابد والقبور والتماثيل. والعادة في تنظيم هذا الخط أنه يدون بحقول متوازية عمودية تبدأ قراءتها من اليمين، ومن الممكن كتابة الخط الهيروغليفي أيضاً بهيئة معكوسة بصورة أفقية ومن اليسار إلى اليمين، وهي الطريقة المتّبعة الآن عند الباحثين المحدثين (لملاءمة ذلك للحروف اللاتينية).

2 ـ الخط الهيراطيقي:

معنى اسم هيراطيقي «كتابة أو خط الكهنة» ومنشؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيروغليفي واختصاره. إذ إن القوم شعروا منذ أزمان قديمة أن الكتابة الهيروغليفية ثقيلة سمجة، كما أنها لا تصلح أن تكتب كتابة سريعة في ورق البردي بالحبر والقلم، لصعوبة ضبط تأدية الصور على مثل هذا الورق، فبدأ الكتبة يحوِّرون في الهيروغليفية الصورية ويبسطون فيها واختصروا فيها أيضاً فنشأ بمرور الأزمان الخط الهيراطيقي وهو طريقة سريعة في الكتابة ونسخية، وكان أقدم استعمال له في استنساخ المؤلفات الأدبية في ورق البردي منذ السلالتين الخامسة أو السادسة (في حدود 1900 ق.م) وظل في الاستعمال في كتابة بعض الشؤون المهمة كالعقود والصكوك والمصالح العامة والآداب والمعارف المختلفة. وبالإمكان كتابة الخط الهيراطيقي بهيئة حقول عامودية أو بصورة أفقية من جهة اليمين على الدوام (وليس من اليسار مطلقاً).

3 ـ الخط الديموطيقي:

معنى اسم هذا الخط «خط العوام أو الجمهور»، ونشوؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيراطيقي وإيجازه مرحلة أبعد، حيث بدأ الكتبة في نهاية السلالة الثانية والعشرين وفي عهد السلالة السادسة والعشرين (947 ـ 663 ـ 525 ق.م) (أي منذ القرن العاشر والتاسع ق.م) يبسطون ويختصرون في الخط الهيراطيقي مراحل أبعد، فأوجدوا منه علامات اصطلاحية، حذفت منها جميع العلامات الباقية من الهيروغليفية مما ظل محافظاً على شكله الصوري

وحلّ الديموطيقي محل الهيراطيقي. والجدير بالذكر أن هيرودوتس لم يذكر من خطوط الكتابة المصرية سوى خطين وهما الخط الهيروغليفي والخط الديموطيقي ولم يذكر الخط الهيراطيقي والسبب في ذلك أن هذا الخط قد اختفى من الاستعمال في عهد «هيرودوتس»، ولكن الهيروغليفي ظل مستعملاً في المآثر المقدسة كما ذكرنا. واستعمل الخط الديموطيقي للكتابة على البردي والحجر، وكان يكتب بهيئة أفقية، ومن جهة اليمين، وظل في الاستعمال إلى ما بعد القرن الثالث الميلادي بقليل، وقد بدأت الحروف الهجائية اليونانية تشيع في الاستعمال وأخذت تحلّ محل الخطوط القديمة الصعبة السمجة، وكُتبت بهذه الحروف اللغة القبطية (إحدى اللهجات المصرية المتأخرة) مع إضافة نحو (7) علامات إلى الحروف اليونانية، فذهبت معرفة الناس بالخطوط القديمة وظلت مجهولة لدى العالم إلى أن حُلّت رموزها في بداية القرن التاسع عشر للميلاد كما سنذكره بعد قليل.

ووجد طور ثالث من طور العصر الحجري المتأخر أطلق عليه اسم «مرمدة» في الحافة الغربية من الدلتا[2]، ويشغل هذا المستوطن طنفاً رملياً يبعد الآن كيلومترين غربي فرع رشيد ومساحته نحو (100×400 م)، وقد وجدت

(1) Cahoh-Thompson, The Desert Fayum (London, 1934); Childe, op. cit., p.35 ff.

(2) لقد حفرت هذا الموضع بعثة آثار نمساوية. انظر التقارير المنشورة في:
Anzeigerd. Akad. d. Wiss. Wien, Phil. -hist. (1929-1940)
المشار إليها: Childe, op. Cit., p.36.

فيه آثار أكواخ من الطين والحصر، وقد تحسن بناؤها بمرور الأزمان ولا سيما تحسّن بناء جدرانها من الطين السميك، وقد استمرّت عدة العهدين السابقين كزراعة الحبوب وطريقة حصدها بمناجل الصوان، واستمرّت نفس الحيوانات في الاستعمال وصيدها بالقوس والسهم، وتحسّنت صناعة الفخار نوعاً ما، حيث لوّنت بألوان حمر وسود، ووجدت مغازل تدلّ على الحياكة، واستمر سكان هذا الموضع على استعمال الزينة وأضافوا إليها حلية متّخذة من العاج ومن عظام ناب الخنزير. وقد وجدت القبور في داخل بيوت السكنى ولكن لم توجد في داخلها الأدوات العائدة إلى الأموات وقد فسّر ذلك بأن أشباح الموتى كان باستطاعتها التزوّد من زاد الأحياء على عكس ما إذا كانت القبور خارج بيوت السكنى. وقد وجد المنقّبون حديثاً موضعاً رابعاً يمثّل طوراً رابعاً أيضاً من العصر الحديث في وادي النيل حيث عُثر على قرية من قرى هذا العصر قرب حلوان في موضع يدعى «العوماري»[1] الذي يقع بنحو 7 كيلومترات من ضفة النيل الشرقية، ويشبه في عدّته ما وجد في «مرمدة». ومما يقال في العصر الحجري الحديث في وادي النيل إن أطواره وآثاره غير مستمرة في مصر السفلى، بخلاف ما عليه الحال في مصر الوسطى والعليا حيث الأطوار الآثارية مستمرة من الدور «الطاسي» فيما بعد، واستمرّت إلى الأطوار التي سنذكرها تحت أطوار العصر الحجري المعدني.

العصر الحجري المعدني:

لقد سبق أن ذكرنا[2] أهم خصائص هذا العهد الذي اصطلحنا على تسميته أيضاً باسم فجر الحضارة لأنه كان مقدمة تمهيدية لظهور الحضارة الناضجة، كما نوّهنا بتشابه أطواره في مراكز الحضارات القديمة، وأهم ما في

(1) عثر على هذا الطور في عام 1942 انظر:
Annals du service des Antiquités de l'Egypt (Cairo, 1948).

(2) انظر الميزات العامة لهذا العهد الحضاري في الفصل الثالث من الجزء الأول.

العصر الحجري المعدني:

لقد سبق أن ذكرنا[2] أهم خصائص هذا العهد الذي اصطلحنا على تسميته أيضاً باسم فجر الحضارة لأنه كان مقدمة تمهيدية لظهور الحضارة الناضجة، كما نوّهنا بتشابه أطواره في مراكز الحضارات القديمة، وأهم ما في

(1) عثر على هذا الطور في عام 1942 انظر:
Annals du service des Antiquités de l'Egypt (Cairo, 1948).
(2) انظر الميزات العامة لهذا العهد الحضاري في الفصل الثالث من الجزء الأول.

ذلك توطد الحياة المستقرة واتساع الزراعة والقرى ومعرفة التعدين وصنع الأدوات المعدنية ولا سيما النحاس، وظهور طلائع الدويلات والوحدات السياسية في دول المدن التي اتحدّت بعدئذ وكوّنت مملكة القطر في العهود التالية.

وقد وجد المنقّبون في وادي النيل آثار قرى متعددة تمثل أدوار هذا العهد حيث يميز كل دور بآثاره الممثلة وأشكال أوانيه الفخارية وأطرزة زخرفتها وقد سُمّيت هذه الأدوار كما في العراق بالأسماء الحديثة للمواضع التي نقب فيها أول مرة ووجدت فيها الآثار المميزة لكل دور.

فيعرف أقدم أدوار هذا العهد باسم الطور «البداري» لأن آثاره[1] وجدت لأول مرة في مواضع ومقابر قرب الموضع المسمى «بداري» في مصر الوسطى، ويمكن اعتبار هذا الدور تطوراً من العهد الحجري الحديث ولا سيما الطور «الطاسي» ووجدت آثاره أيضاً منتشرة في بقاع متعددة من مصر العليا. ونذكر أبرز ما يميّز هذا الدور تاركين التفصيلات الفنية، فأول ما يجلب انتباه الدارس لآثاره كثرة المواد المستوردة بالتجارة الخارجية ولا سيما من جهات طور سيناء ونوبية ولعله من سوريا. ونجد لأول مرة أيضاً أن سكان وادي النيل عرفوا معدن النحاس ولكنها كانت معرفة بدائية أولية. وتشير نماذج القوارب المصغرة من الفخار إلى معرفة بالملاحة. ونلاحظ أيضاً تقدماً محسوساً في صناعة الأواني الفخارية ولا سيما الأواني المودعة في القبور مع الموتى، كما أنهم بدأوا يزوّقون هذه الأواني وينقشونها، وصنعوا من العاج ومن الطين المطبوخ دمى طين تمثل نساء يرجّح أنها نوع من آلهات مما يعرف بالآلهة ـ الأم.

لقد أعقب الدور البداري أدوار أخرى من العصر الحجري المعدني دعيت بالترتيب الآتي «الأماري» و«الجرزي» (وقد سميا أيضاً بأسم دور «نقادة»

الأول والثاني)[1]. والمرجّح أن الدور «الأماري» الذي وجد ممثلاً في مواضع في مصر العليا قد تطور عن الطور السابق «البداري» كما أن سكان وادي النيل في هذا العهد قد بدأوا في زراعة الري المنتظمة في وادي النيل وتركوا زراعة وديان الصحراء، وبعبارة أخرى أتّسعت الزراعة في هذا العهد مما أدّى إلى أتساع المستوطنات وتكاثر السكان، كما أن القرى أخذت تصبح مدناً صغيرة مسوّرة. ويرى كثير من الباحثين أن هذه القرى اتخذت نظام الطوطمية حيث كان لكل قبيلة أو قرية حيوانها المتّخذ طوطماً، وقد وجدت بعض الحيوانات منقوشة على أواني الفخار مثل التمساح والعقرب وحيوانات أخرى وقد فسرت بأنها تشير إلى نظام «الطوطم»[2] كما يلاحظ التخصص وأتساع التجارة أيضاً، وعرفت صناعة السفن من البردي. اعتنى الناس في رسوم الدفن مما يدل على تبلور المعتقدات الدينية حيث جهّزت القبور بالأثاث وبالأدوات الضرورية. وتنوّعت زخرفة الأواني الفخارية واستعمل الحجر لنحت الأوعية، واستمرّ الناس في تفننهم بالزينة ولا سيما استعمال «كحل» العيون، ومارسوا الوشم، والقلائد من قشور بيض النعام وحجر العقيق والحجر الأخضر[3].

ومما يقال عن الطور «الجرزي» أنه تمّ فيه تقدم أساسي في الحياة الاقتصادية، حيث انتشرت المخترعات الصناعية واتّسعت التجارة الخارجية والاتصالات الثقافية التي سنذكرها فيما بعد. وإذا كان الطور الأماري السابق يتميز بالإنتاج الخليط من الزراعة والصيد (جمع القوت) فقد أصبحت الزراعة

---

(1) لقد وضع الباحثون دوراً ثالثاً يعقب الدور الجرزي سموه باسم الطور السميني (Semainian) ودعوه باسم دور نقادة الثالث ولكن البحث الحديث أبان بأنه لا مجال لإضافة هذا العهد الجديد من الناحية الأثرية. انظر:

Helen J. Kantor, «Gerzean or Semainian» in JNES. III (1944), 110 ff.; Childe, Op. Cit., 99.

كما وجد موضع آخر جنوبي القاهرة بقليل يدعى «معادي» لا يعلم مكان دوره بالنسبة إلى الدور الجرزي في مصر العليا ولعله يضاهيه في الزمن ويعقبه قليلاً. (Childe, Op. Cit., 75)

(2) انظر تعريف الطوطم في الجزء الأول.

(3) انظر: Childe, Op. Cit., 50 ff.

مصادر تاريخها وأدوار هذا التاريخ:

سوف لا نطيل الكلام على المصادر الأساسية التي تستند إليها معرفتنا بتأريخ بلاد الشام إذ يمكن إجمال ذلك بقولنا إنها بالدرجة الأولى من التنقيبات والبحوث الآثارية الحديثة التي كشفت لنا عن فصول مهمة من تأريخ هذه البلاد مما قبل العهد اليوناني والروماني والعربي، منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ حيث عرفتنا بسكنى البشر في العصور الحجرية وفي عصور ما قبل

التأريخ الأخرى التي تلت العصور الحجرية، والعهود التأريخية المهمة التي تمثلها لنا آثار الأموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والعبرانيين والأنباط. وأنه حتى في الأدوار التي تكثر عنها المصادر المدوّنة المعروفة سابقاً، كتأريخ العبرانيين وعلاقاتهم مع الأقوام السورية المختلفة مما جاءت أخبارها في التوراة، والمصادر الكلاسيكية (اليونانية الرومانية) والمصادر العربية الإسلامية، نقول إنه حتى في هذه الأدوار المتوفرة فيها مصادر البحث فإن التنقيبات في المواضع الممثلة لها قد أنارت لنا جانباً مهماً منها حيث مخلفات الحضارة المادية وفنونها ونواحيها المهمة الأخرى. ولما كنا سنشير إلى مراجع البحث الخاصة في كلامنا على الأدوار المختلفة فإننا ننهي هذه الملاحظة عن مصادر التأريخ السوري بذكر نوع آخر من المصادر المهمة تلك هي ما ورد في الأخبار المدوّنة مما جاءنا من حضارتي مصر والعراق بالدرجة الأولى.

إن هذه المصادر التي عددنا أنواعها قد مكّنت الباحثين المحدثين أيضاً من تمييز الأطوار المختلفة المتميزة في تأريخ بلاد الشام وضبط تسلسلها التأريخي. ونذكر هذه الأطوار بحسب تسلسلها التأريخي منذ أقدم عهود ما قبل التأريخ على الوجه الآتي[1]:

أدوار التاريخ الرئيسة في بلاد الشام:

أولاً: عصور ما قبل التأريخ:

1 ـ العصر الحجري القديم بأدواره المختلفة.

2 ـ العصر الحجري الوسيط.

3 ـ العصر الحجري الحديث.

4 ـ العصر الحجري المعدني.

---

(1) انظر: (Hiti, Op. Cit., 57 ff.)

الرطبة) مما جعل معرفتنا بهذا العصر وبأطواره المختلفة وأشكال البشر الذين عاشوا فيه أكثر منها بالنسبة إلى جهات الشرق الأدنى الأخرى. فمن هذه الكهوف الشهيرة في لبنان كهف في منتصف الطريق تقريباً بين صور وصيدا (واسمه عدلون) وفي كهوف نهر إبراهيم ونهر الكلب وكهف «أنطلياس»[1] حيث وجدت آثار العصر الحجري القديم من نصفه الأول الذي أغلب ما يميز بصنع آلات الصوان من لب الحجر مما يعرف باسم (Core flint industry) كما نذكر كهف جبل الكرمل الذي نقبت فيه «دوروثي گارود» و«بيت»[2] ومواضع أخرى في شمال غربي البحر الميت وشمالي غربي بحر الجليل ووجدت فؤوس حجر يدوية من أدوار هذه العهود في مواضع أخرى في عقيق نهر الأردن، جنوب جسر بنات يعقوب[3]، كما وجدت آثارها أيضاً في رأس الشمرة (أوغاريت القديمة).

أما بقايا الإنسان العظمية من النصف الأول من العصر الحجري القديم فلم يعثر بعد على نماذج لها، ولكن مما لا مراء فيه أن تكون من نوع الإنسان العتيق البائد (Palaeoanthropic) الذي عاش في مثل هذه الكهوف التي عددناها لحمايته عن الأمطار والبرد القارس واتقاء شر الحيوانات المفترسة. وقد عاشت أنواع من الحيوانات انقرض معظمها، كحيوان الرنة (الرنديز) (Rhinoceros) وفرس الماء وبعض الحيوانات الشبيهة بالفيل. وكان المناخ مختلفاً عمّا هو عليه الآن بشدة برده القارس، إذ إنه مع عدم تقدم طبقات الجليد (الثلاجات) إلى سوريا الجنوبية إلا أن المناخ كان قارساً من أثر العصور الجليدية التي عمّت أوروبا، أما في الشرق الأدنى فكان على ما ذكرنا

---

(1) انظر بحث ذلك في المرجع الآتي:
G. Zumoffen, **La Phénicie Avant les Phéniciens** (Beirut, 1900).
ومجلة **(Anthropos, III (1906), 431 ff.**

(2) **Dorothy A.E. Garrod G.D.M. Bates The Stone Age of Mount Carmel** (Oxford, 1937).

(3) انظر المجلة التي تصدرها دائرة الآثار في فلسطين.
The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, VI (1936), 214 ff.

سابقاً يقابل مثل هذه العصور الجليدية عصور ممطرة (Pluvial Period). وإذا انتقلنا إلى النصف الثاني من العصر الحجري القديم فتكثر لدينا الهياكل البشرية العظمية، كما وجدت في كهوف جبل الكرمل مثل «مغارة الطابون» و«مغارة السخول»[1] وفي كهوف أخرى حيث وجدت معها آلات من النوع المسمى بالمستيري (Mousterian) (من حدود 100000)، أما أنواع هذه الهياكل فبعضها شبيه بإنسان النياندرتال وبعضها يقرب من نوع الإنسان الحديث (Hamo Sapiens) ولعلها تكون حلقة الاتصال في تطور الإنسان من النوع العتيق البائد إلى نوع الإنسان الحديث وقد سمي هذا النوع بإنسان «فلسطين». وكان الإنسان لا يزال يعيش في الكهوف، واستعمل أسلوباً جديداً في صنع أدوات الصوان حيث استعمل الشظايا بعد هندمتها آلات له. وتوجد في جامعة بيروت الأمريكية نماذج ممثلة لآثار العصور الحجرية القديمة. وهناك أمارات على تبدّل في المناخ حدث في أواخر العصر الحجري القديم في بلاد الشام، من الرطوبة إلى الجفاف، ويسمى الطور الأخير من العصر الحجري القديم في أوروبا باسم الطور «الأورغنيشي» الذي وجد ما يضاهي أدواته وآلاته في الكهوف القريبة من بيروت مثل كهوف نهر الكلب وكهف أنطلياس[2]، كما وجدت حديثاً (1938) في كهف يسمى «كسار العقيل»[3] قرب أنطلياس مع هياكل عظمية.

العصر الحجري الحديث:

قبل أن ينتقل الإنسان في سوريا إلى العصر الحجري الحديث انتقل من العصر الحجري القديم إلى فترة فاصلة بين الطورين سبق أن أشرنا إليها في

---

(1) انظر: Garrod G Bates, **Op. Cit.**, chaps. 4-7.

(2) انظر مجلة «الكلية»، مجلد 12 (1926).

(3) انظر مجلة المشرق (1947) ص 74 فما بعد وانظر أيضاً:

J.F. Ewing, **«Aurignacian Man in Syria»**, **in Amer. Jour. of Physical Anthropology** IV, (1946), 252 ff.

الفصل الخامس والعشرون

شيء عن الدولة والمجتمع

الملك:

كان الملك، كما سبق أن نوّهنا مراراً، رأس المجتمع والدولة في مصر القديمة في جميع أدوار تأريخها، كما وقد سبق أن رأينا أيضاً أن نظام الحكم الملكي قد ظهر في وادي النيل منذ نهاية عصور ما قبل السلالات، وتمتد جذوره إلى أبعد من ذلك حيث نظام الرئاسة القبلية ومشيختها متأصل في قارة أفريقيا منذ عصور ما قبل التأريخ. وتقول المآثر المصرية إن أول ملك في مصر هو الذي كان ملكاً على أول سلالة في تأريخ البلاد، أما ما قبل عهده فتروي هذه المآثر أيضاً أن الحكّام كانوا نوعاً من الأرواح الشبيهة بالآلهة، وقد سبق هذا العهد زمن كانت الآلهة أنفسها تحكم البلاد، وكان أول ملك في الكون وفي مصر الإلٰه الخالق «أتوم ـ رع» حيث صار ملكاً على الخليقة التي أوجدها، وهكذا فإن الملوكية عريقة في القدم وظهرت منذ الخليقة. وللمقارنة بهذا الأصل النظري للملكية في مصر القديمة كانت الصورة التي كوّنها سكان العراق الأقدمون مختلفة عن ذلك تمام الاختلاف، فإن الملكية لم تكن من أصل نظام الكون بل كانت طارئة نشأت بسبب الأزمة التي حلّت في الكون بعد مجيء الآلهة على نحو ما فصلناه في كلامنا على حضارة وادي الرافدين. وإذ كانت الملكية في العراق القديم مقدسة وأصلها من الآلهة إلا أن الذي كان يتقلّدها من البشر كان بشراً اعتيادياً وقد يقدس لأنه يحمل حملاً مقدساً أو وظيفة مقدسة، ويقابل ذلك في مصر أن الذي يتقلّد الملوكية من البشر كان إلٰهاً

نفسه، وهذا هو جوهر الاختلاف في الأصل النظري للملوكية في كلتا الحضارتين. فالفرعون كان إلٰهاً بالتجسيد (incarnate god) منذ ولايته للعهد، وإذا كان الملك في حضارة وادي الرافدين مفوضاً من قبل الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة ليجعل علاقات البشر منسجمة مع القوى فوق الطبيعة، فإن الملك في حضارة مصر كان من مجمع الآلهة، أي إنه إلٰه نزل وتجسد في الفرعون ليحكم الناس، ولما كان رأس المجتمع المسؤول عن إدارته إلٰهاً، فإن شعور هذا المجتمع بالضمان في هذه الحياة إنما هو شعور الاطمئنان. لقد عبد المجتمع الملك بصفته إلٰهاً لضمان الانسجام بينه وبين القوى الطبيعية. وقد سبق أن نوّهنا بتفسير هذا البون بين الحضارتين بالمقارنة بين البيئتين الجغرافيتين اللتين نشأتا فيهما، وإذ سلم سكان وادي الرافدين من عبادة الملوك وتأليههم فإنهم لم يسلموا من شعور عدم الاطمئنان إزاء ما تفعله الآلهة والقوى الطبيعية. ونجد انعكاس ألوهية الملك واضحة في التعبير الفني في مصر حيث الملك يمثل في المشاهد الحربية وحده على الغالب بدون جيش (كما في تمثيل صفحة الملك نارمر)[1] وفي منحوتة طوطمس الثالث في الكرنك. وعلى النقيض من ذلك تمثيل الملوك في العراق القديم وهم على رأس الجيش، ويماثل تمثيل الفراعنة في الفن المصري تمثيل الآلهة في فن العراق القديم، ففي المسلة الشهيرة المسماة «نصب النسور» لايانانتم، تشاهد هذا الحاكم السومري وهو على رأس جيشه، ولكن تشاهد في الوجه الثاني من اللوحة نفسها الإلٰه «ننجرسو» ممثلاً وحده وقد اصطاد الأعداء في شبكته المقدسة.

وتتضمّن فكرة ألوهية الفرعون بالتجسيد جيلين من الفراعنة. فإن اعتلاء الملك الجديد للعرش يعني اندماج قوى الملك الراحل بالملك الجديد، ويستمر الملك الميت في حكم البشر الأموات. إذ إن الملك الميت يصير

---

(1) انظر بحث ذلك في:

H. Frankfort, **The Kingship and the Gods** 54;

بالتجسيد بمثابة الإله «أوسيريس»، أما الملك الذي يخلف الملك الميت فيصير الإله «هورس» بن أوسيريس الذي أعقب أباه وصار ملكاً أيضاً، كما أن الملك الجديد يتجسد أيضاً بالإله الشمس «رع»، أو يصير ابنه، وهكذا تستمر الدورة. وكان الفرعون يسمى في كثير من النصوص باسم الإله (نيتجير «netjer») أو «الإله الخيِّر الطيب»، ولما كان الفرعون مجسداً للإله هورس، فصار رمزه المقدس طير النسر، وهو الحيوان الذي يرمز إلى الإله هورس أو أن هذا الإله حلّ فيه (انظر الشكل آخر الفصل). ويرى أكثر الباحثين أن السبب في جعل الملك يتجسد في الإله هورس سياسي في أصله، فإن أولى سلالة حكمت في مصر أصلها من موطن كان يعبد فيه الإله الصقر «هورس». ويجوز أن يلقّب الفرعون بابن أي إله من الآلهة أو ابن أية إلهة. وقد صار شخص الملك بسبب ألوهيته مشحوناً بالقدسية المحظرة بالنسبة إلى البشر الآخرين من ناحية الاقتراب منه ومخاطبته، فكانوا لا ينطقون باسمه بل يشيرون إليه بصفات التعظيم كصاحب الجلالة. وقد سبق أن ذكرنا أنهم صاروا يشيرون إليه في عهد الأمبراطورية (منذ السلالة الثامنة عشرة) باسم الفرعون أي «البيت العظيم»، وهي الكنية التي أُطلقت على جميع ملوك مصر. وكان أشهر ألقاب الملك منذ عهد المملكة القديمة «ابن ـ رع» وبلاد مصر «ابنة رع»، أما كيفية نسبته بصلة البنوّة إلى الإله «رع»، فهو أن أمه من البشر ولكن زوجها هو الإله «رع» الذي تجسّد في زوجها الملك لينجب ابنه الملك الجديد، وعندما يموت الملك الحاكم يقوم إلى الحياة ويتّصل بأبيه الإله الشمس. وكثيراً ما وصف الفرعون بصفته إلٰهاً بصفات متضادة متقابلة كالرحمة والشدّة، والعدل والعقاب، وكذلك تكون الدولة التي يرأسها الفرعون، والتي هي الفرعون نفسه، ونلاحظ ذلك في صفات القوى الطبيعية التي ألفها المصريون القدماء كالنيل الذي يكون رحيماً محسناً إذا كان منتظماً في دورة فيضانه وفي مقدار فيضانه، ويكون جباراً شديداً إن شذّ في مقدار الفيضان من ناحية القلة والكثرة على نحو ما بيّناه في كلامنا على جغرافية وادي النيل.

واستتبع ألوهية الفرعون أيضاً أمور أخرى مهمة في حياة الدولة المصرية

ونظامها وفي حياة الشعب. فكان الفرعون بصفته إلهاً مطلق الحكم والسيطرة في البلاد وفي سكانها، حيث يملك جميع البلاد (بصورة نظرية في بعض الأحايين وبصورة عملية في أحايين أخرى) والملكية الفردية غير ممكنة إلّا بنتيجة منح الملك إياها للأشخاص الذين يتصرفون بها، ويصدق ذلك أيضاً على حرية الأفراد الشخصية وعلى مكانتهم في المجتمع، فكان كل ذلك رهن إرادة الملك.

كما أن الملك كان ينبوع العدالة والشريعة إذ إنها تصدر عن إرادته ومشيئته، وإذا احترم الملك من الوجهة النظرية مآثر البلاد وحقوق الناس إلا أنه لا يمكن أن يكون هناك عدل أو شريعة مستقلين خارج سلطة العرش وإرادته. وكان الملك على الرغم من سلطته المطلقة أيضاً مقيّداً من الوجهة النظرية على الأقل أن يسير وفق العدل والحق، وقد سبق أن رأينا أن المصريين جسّموا العدل وجعلوه باسم إلهة هي «مات» (ابنة الإلٰه رع) التي تعني النظام الصحيح والحق والصدق، مما ينبغي أن يتحلّى بها الملك بصفته إلٰهاً، وإلى هذه الصفات الواجب توفرها في الملك الإلٰه فإنه مزوّد أيضاً بالإرادة الإلٰهية أو ما يصحّ ترجمته «القول الخالق» (بالمصرية القديمة «هو»)، وبالإدراك والفهم (بالمصرية «سيا»)، والملك على ذلك مسؤول عن تردّي الأحوال في المملكة، ولكن بما أنه إلٰه فلا يستطيع المجتمع أن يحاسبه أو يثور ضده من الوجهة النظرية. فلم يكن هناك طريقة شرعية يبدل بها الملك الحاكم بغيره، كما أننا لا نجد في سجلات مصر ما يشير إلى ما يمكن تسميته بالثورة الشعبية على الملك الإلٰه، وكل ما نجده في سير التأريخ المصري مؤامرات في البلاط بين أمراء البيت المالك أو الأمراء من السلالات الملكية، وكان يسهل للناجح منهم أن يبرّر اعتلاءه العرش من الناحية الشرعية بنظرية التجسد الإلٰهي، وعلى هذا فلم يكن في تأريخ مصر مدّعون أو غاصبون للعرش من الوجهة النظرية بخلاف ما مرّ بنا في حضارة وادي الرافدين.

هذا وإن سلطة الملك على رعيته لا تنتهي بالموت، فإن حمايته لهم

وعلاقتهم به تمتد إلى العالم الآخر حيث يتجسّد الملك بالإله «أوسيريس» ملك عالم الأموات، وتوجد حالات قليلة في عهد السلالة الأولى كانت يضحي فيها البشر من أتباع الملك عند موته، ولكن هذه العادة بطلت منذ عهد السلالة الرابعة[1]، وصار قبر الملك بدلاً من ذلك مركزاً لقبور أتباعه من الأمراء وكبار رجال الدولة ليشملهم بحمايته في العالم الآخر ولأنه يحتاج إلى خدمتهم في ذلك العالم. كما يجب على أفراد المجتمع الآخرين أن يعبدوا الفرعون الميت. ولم تقتصر سلطة الملك بصفته إلٰهاً على البشر بل كانت تشمل حتى القوى الطبيعية ومن ذلك الظواهر الطبيعية التي تتوقف عليها حياة مصر مثل ضمان فيضان النيل. وقد ميّزوا الملك عن البشر العاديين بالنسبة إلى قدراته الخارقة حتى في مسألة العنصرين الحيويين اللذين قلنا إن المصريين القدماء جعلوهما العنصرين الروحيين المكوّن منهما الجسم الإنساني، حيث إن هذا الجسم مكوّن عدا العنصر المادي من عنصرين آخرين هما الروح «الكا» والنفس «البا» وهما مصطلحان لا يمكن ترجمتهما ترجمة دقيقة، فيجوز أن تعني «الكا» قوة الحياة ويفسر المصريون الموت بأنه شيء مؤقت يحدث بسبب ترك «الكا» للجسم حيث يعبرون عن ذلك بأنها «استراحة» مؤقتة، إذ تعود إليه من بعد الموت. ومع وجود هذين العنصرين عند سائر الناس إلا أنهما عند الملوك من عنصر وماهية خاصيتين. والجدير بالذكر بهذا الصدد أن المصريين لم يصوّروا لنا «الكا» الخاصة بالناس العاديين من غير الملوك، بخلاف «البا» التي كثيراً ما مثّلوها على هيئة طائر ذي رأس بشري وهو حاط على بركة ماء، فهي بحسب هذا التصوّر أليق أن تسمى بشبح الميت كما عند بعض الأقوام الأخرى مثل البابليين. ولكنهم صوّروا لنا الـ «كا» الخاص بالملك على هيئة «قرين» يلازمه في الحياة بهيئة ملاك حارس، ويشارك الملك فيما بعد الموت.

---

(1) انظر: H. Frankfort, **Kingship and the Gods,** 6 ff.
G.A Reisner, **The Development of the Egyptian Tomb,** 117 ff.

الطب:

ومما لا شك فيه أن الحاجة لتداوي الأمراض وشفائها قد نشأت عند سكان وادي النيل والرافدين منذ عصور ما قبل التأريخ، ولا ندري بوجه التأكيد هل أن أصل الطب من السحر وما يتعلق بالطرق السحرية، والراجح أن الطب بدأ بالتجربة مقرونة بالأعمال السحرية فقد عزوا الأمراض إلى الأرواح والشياطين. ومما يؤيد علاقة الطب بالأعمال السحرية والطرق الروحية أن الطب في كلا القطرين (وادي النيل ووادي الرافدين) لم يستطع أن يتخلّص تخلصاً تاماً من الرقى والتعزيم في أزمان نضجه في العصور التأريخية. ولما كان الأطباء في مصر والعراق على الغالب متضلعين في الكتابة ومن صنف الكتبة فقد دوّنوا لنا ملاحظاتهم وبحوثهم الطبية وجاءنا منها نماذج كثيرة. وقد ورد ذكر الكتابات الطبية في مصر في أزمان قديمة ترجع إلى زمن السلالة الثالثة. وجاءتنا نماذج من هذه الكتابات الطبية المصرية فيما بعد 2000 ق.م. أما النماذج البابلية فإنها متأخرة بالنسبة إلى تأريخ الكتابات المصرية الطبية، ولكن كثيراً من هذه النماذج البابلية المتأخرة (من أواخر الألف الثاني ق.م) نسخ من كتابات أقدم منها. والجدير بالذكر أن الكتابات الطبية من كلا القطرين كانت أشبه ما تكون بكتب «الوقائع والحالات الطبية» في وقتنا هذا ولم تصلنا بعد تآليف عن التشريح ووصف الأعضاء ووظائفها. ومع ذلك فإن

المصريين قد اكتسبوا معرفة لا بأس بها عن الجسم الإنساني من ممارستهم التحنيط ولكن الغريب في ذلك أن أسماء أعضاء الجسم الإنساني مأخوذة من أسماء أعضاء الحيوان، ولعلّ سبب ذلك أن تسمية هذه الأعضاء بدأت قبل معرفة التحنيط.

وقد اشتهر المصريون لدى اليونان بمعرفتهم الطبية، والذي لا مراء فيه أنهم كانوا يستحقون مثل هذه الشهرة. ولكي يدرك الطالب مصادر معرفتنا بطب المصريين القدماء، فعليه أن يعرف أن درج البردي (لفات أوراق البردي) الخاصة بالطب المصري يمكن تقسيم محتوياتها إلى صنفين:

(1) مؤلفات طبية صرفة.

(2) مؤلفات لأغراض سحرية وفيها وصفات طبية، ويدخل في هذا الصنف الوصفات الطبية الشعبية. وننتخب فيما يأتي أشهر هذه الوثائق، مما هو موجود الآن في متاحف العالم الشهيرة:

(1) فأول ما نذكر النص الطبي المشهور باسم «بردية ايبرس» (Ebers Papyrus) وهو أشهر وأطول مصدر طبي، وقد وجد في عام 1862 واقتناه الشخص المنسوب إليه، وهو الآن محفوظ في جامعة «لبسك» (Leipsic)، ومحتوياته طبية وسحرية، وفي ظهره أمور عن التقويم، وقد كُتب في عهد السلالة الثامنة عشرة ولكن الأدلة الداخلية تشير إلى أنه نسخة عن أصل أقدم بعدة قرون. وعلى كل حال فلا ينبغي لنا أن نقيسه بالتآليف اليونانية أو الحديثة، وإنما هو مجموعة من الوصفات المأخوذة من عدّة مصادر ولم تشخص الأمراض الموصوفة إليها تلك الأدوية. وذكرت فيها العقاقير ومقاديرها وكيفية استعمالها. ومن الأمراض الواردة فيها أمراض خاصة بالمعدة والقلب وأوعيته، وكذلك العلاجات الجراحية الخاصة بالمثانة، وتتخلل الوصفات الطبية رقى وتعاويذ سحرية.

2 ـ ويوجد نص شهير آخر معروف باسم «بردية أدون سمث

الجراحية»[1]. وهو الآن في حيازة الجمعية التأريخية في نيويورك، وقد نشره نشراً علمياً العلامة «بريستد»، ويحتوي على مسائل جراحية في معالجة الجروح والكسور وطرق تجبيرها، ويحتوي هذا النص على شروح موضّحة للمصطلحات الفنية الغريبة. والطريف ذكره في هذين النصين أنهما يحتويان على وصف وظائف القلب، وكيف أن القلب «يتكلم» بواسطة الأعضاء المختلفة من الجسم الإنساني، فيستطيع الطبيب أن يجسّ القلب من النظر في تلك الأعضاء، ولا يعلم بوجه التأكيد هل هذا يدلّ على معرفة بالدورة الدموية، ولكن معظم الباحثين لا يميلون إلى الإيجاب[2]، ومهما كان الحال فإن معرفتهم بعلاقة القلب العضوية بأعضاء الجسم وبأهميته بصفته منبع الحياة، لهي في حدّ ذاتها ذات أهمية خطيرة في تأريخ التشريح والفسلجة.

---

(1) The Edwin Smith Papyrus.

(2) حول موجز المصادر الطبية الأخرى انظر:

Wilson, **The Burden of Egypt**, 56.

The Legacy of Egypt.

الفصل الرابع والعشرون

«الأدب ـ الفن ـ القانون والشريعة»
وشيء عن العلوم والمعارف

1 ـ الخط الهيروغليفي وحل رموزه:

لكي يلمّ الدارس لحضارة وادي النيل بشيء عن آدابها المدوّنة وعلومها فإنه يلزم عليه أن يعرف الوسائل التي دوّنت بها تلك الآداب والعلوم، أي يتعرف على كتابتها لأن هذه الكتابة، مثل الخط المسماري، تدخل في صلب فهم اللغة والحضارة وليست من قبيل الحروف الهجائية التي يُستغنى عن معرفتها.

اشتهرت حضارة وادي النيل بخطها المشهور بالخط الهيروغليفي حيث يجده المرء في المآثر التي خلفتها تلك الحضارة ويحسبه نوعاً من الزخرفة والزينة الصورية. ولكن الواقع أن الخط الهيروغليفي يمثّل لنا أقدم الخطوط التي ابتدعتها الحضارة المصرية في تدوين شؤونها المختلفة، وقد نشأ ذلك الخط في مصر في أواخر ما سميناه بالعهد الحجري المعدني وفي بداية عهد السلالات، ويعزى نشوؤه، كما رأينا في الخط المسماري، إلى الحاجات التي استتبعت نشوء الحياة المصرية في وادي النيل. ولكن هناك فرقاً مهماً بين الخط الهيروغليفي والخط المسماري من ناحية الأصل. إذ إن أصل هذا الخط غير واضح وضوح أصل الخط المسماري الذي وُجدت أصوله البسيطة الأولى لما كان بهيئة صور تمثل الأشياء.

أما ما جاءنا من الخط الهيروغليفي إلى حال التأريخ فلا يمثل لنا بداية هذا الخط فإن أقدم نماذج جاءتنا عنه لا تمثّل لنا مراحل نشوئه الأولى وإنما

طور نضجه وانتقاله من الطور الصوري المحض إلى الطور الكتابي الرمزي. ولكن على الرغم من عدم وجود نماذج من الأطوار النشوئية الأولى للخط الهيروغليفي فالمرجّح عندنا أن ذلك الخط ابتدعه المصريون القدماء أنفسهم منذ السلالات الأولى[1] من المقابر الملكية العائدة إلى هذه السلالات، وأقدم نماذج منه ما جاءنا من عهد السلالة الأولى في النقوش المحفورة على نوع خاص من صفائح الحجر التي وجدت في «هيراكونبوليس» الواقعة بنحو (50) ميلاً جنوب طيبة، وأشهر هذه الأحجار المكتوبة ما يُعرف باسم حجر «نارمر» نسبة إلى «نارمر» الذي قلنا إنه كان أحد ملوك السلالة الأولى، ولعله أحد الملوك الذين أطلق عليهم اسم «منا» مؤسس هذه السلالة وموحّد المملكة المصرية المأثور.

وعلى الرغم من جهلنا بأبسط أطوار الخط الهيروغليفي فإن هذا الخط، قياساً على أقدم نماذج له، كان أصله صورياً، ثم تطوّر إلى ما سميناه بالطور الرمزي أي إن العلامات الهيروغليفية صارت تقوم مقام كلمات ومعان لها علاقة بأصل العلامة الصوري، وتطور الخط الهيروغليفي منذ أقدم الأزمان التأريخية إلى الطور الصوتي (ولعل ذلك بتأثير حافز الكتابة المسمارية) حيث استعملت العلامات بهيئة مقاطع لكتابة الكلمات المختلفة، وكانت هذه الطريقة شبيهة بطريقة الكتابة الهجائية إلا أنها لم تكن هجائية صرفة. فمثلاً خصّص المصريون القدماء مجموعتين من العلامات الصوتية الشبيهة بالهجائية، تتألف المجموعة الأولى من 24 علامة قوام كل منها حرف صحيح مقروناً به أي حرف علة من حروف العلة الموجودة في أصوات اللغة المصرية. فمثلاً الحرف (م) يمكن أن يُقرأ بهيئة «مو» أو «ما» أو «مي»، وينتخب حرف العلة اللائق بحسب القرينة في كتابة الكلمات المختلفة. والمجموعة الثانية مؤلفة من نحو (80) علامة هي علامات مقطعية صوتية شبيهة بالحروف الهجائية وقوام

---

(1) يرى بعض الباحثين احتمال أخذ الحافز على نشوء الخط الهيروغليفي من الخط المسماري. انظر ما ذكرناه سابقاً عن الموضوع، وانظر المرجع الآتي: .(The Legacy of Egypt, p.42)

كل علامة حرفان صحيحان مقروناً بهما (في الوسط أو في الآخر) أي حرف علة[1]. وبقيت الكتابة المصرية القديمة خليطة من الكتابة الرمزية والكتابة الصوتية المقطعية (الشبيهة بالهجائية) ولم تصل إلى المرحلة الهجائية الصرفة. ولكن حدث في شكل خطها تطورات وتبدّلات مهمة مما أدّى إلى ظهور جملة أنواع من الخطوط نوجزها على الوجه الآتي:

أنواع الخطوط المصرية:

توجد ثلاثة أنواع متميزة من خطوط الكتابة في حضارة وادي النيل هي بحسب ظهورها التأريخي:

(1) الخط الهيروغليفي (Hieroglyphic).

(2) والخط الهيراطيقي (Hieratic).

(3) والخط الديموطيقي (Demotic).

1 ـ الخط الهيروغليفي:

الخط الهيروغليفي هو الخط المقدس[2] الذي كان أقدم أنواع الخطوط المصرية القديمة وقد ظل في الاستعمال منذ أقدم أطواره (2900 ق.م) إلى نحو 100 ق.م.[3]، وظل محافظاً على شكله الصوري (أي شبه العلامات

---

(1) ففي المقطع (Tm) مثلاً يمكن قراءته بأوجه كثيرة مختلفة مثل T(a) m(a) وT(u) m(u) وT(e) m(e) وT(i) m(i) الخ. وتسمى مثل هذه العلامات بمصطلح (alphabeto-syllabic). حول أحدث البحوث والآراء في الكتابة الهيروغليفية راجع:

Gelb, **The Study of Writing** (1952).

وانظر كذلك:

The British Museum Guide (1930).

(2) مصطلح هيروغليفي كلمة يونانية مركبة من كلمتين كلمة «مقدس» (hieros) وكلمة حفر أو نقش على الحجر (glyphein).

(3) ظل الهيروغليفي في الاستعمال قليلاً أزماناً أخرى، وبإمكاننا تأريخ بطلان استعماله وموته نهائياً في القرن الثالث للميلاد.

المستعملة بالصور)، واستعمل لنقش المآثر والكتابات المقدسة في المعابد والقبور والتماثيل. والعادة في تنظيم هذا الخط أنه يدون بحقول متوازية عمودية تبدأ قراءتها من اليمين، ومن الممكن كتابة الخط الهيروغليفي أيضاً بهيئة معكوسة بصورة أفقية ومن اليسار إلى اليمين، وهي الطريقة المتّبعة الآن عند الباحثين المحدثين (لملاءمة ذلك للحروف اللاتينية).

2 ـ الخط الهيراطيقي:

معنى اسم هيراطيقي «كتابة أو خط الكهنة» ومنشؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيروغليفي واختصاره. إذ إن القوم شعروا منذ أزمان قديمة أن الكتابة الهيروغليفية ثقيلة سمجة، كما أنها لا تصلح أن تكتب كتابة سريعة في ورق البردي بالحبر والقلم، لصعوبة ضبط تأدية الصور على مثل هذا الورق، فبدأ الكتبة يحوِّرون في الهيروغليفية الصورية ويبسطون فيها واختصروا فيها أيضاً فنشأ بمرور الأزمان الخط الهيراطيقي وهو طريقة سريعة في الكتابة ونسخية، وكان أقدم استعمال له في استنساخ المؤلفات الأدبية في ورق البردي منذ السلالتين الخامسة أو السادسة (في حدود 1900 ق.م) وظل في الاستعمال في كتابة بعض الشؤون المهمة كالعقود والصكوك والمصالح العامة والآداب والمعارف المختلفة. وبالإمكان كتابة الخط الهيراطيقي بهيئة حقول عامودية أو بصورة أفقية من جهة اليمين على الدوام (وليس من اليسار مطلقاً).

3 ـ الخط الديموطيقي:

معنى اسم هذا الخط «خط العوام أو الجمهور»، ونشوؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيراطيقي وإيجازه مرحلة أبعد، حيث بدأ الكتبة في نهاية السلالة الثانية والعشرين وفي عهد السلالة السادسة والعشرين (947 ـ 663 ـ 525 ق.م) (أي منذ القرن العاشر والتاسع ق.م) يبسطون ويختصرون في الخط الهيراطيقي مراحل أبعد، فأوجدوا منه علامات اصطلاحية، حذفت منها جميع العلامات الباقية من الهيروغليفية مما ظل محافظاً على شكله الصوري

وحلّ الديموطيقي محل الهيراطيقي. والجدير بالذكر أن هيرودوتس لم يذكر من خطوط الكتابة المصرية سوى خطين وهما الخط الهيروغليفي والخط الديموطيقي ولم يذكر الخط الهيراطيقي والسبب في ذلك أن هذا الخط قد اختفى من الاستعمال في عهد «هيرودوتس»، ولكن الهيروغليفي ظل مستعملاً في المآثر المقدسة كما ذكرنا. واستعمل الخط الديموطيقي للكتابة على البردي والحجر، وكان يكتب بهيئة أفقية، ومن جهة اليمين، وظل في الاستعمال إلى ما بعد القرن الثالث الميلادي بقليل، وقد بدأت الحروف الهجائية اليونانية تشيع في الاستعمال وأخذت تحلّ محل الخطوط القديمة الصعبة السمجة، وكُتبت بهذه الحروف اللغة القبطية (إحدى اللهجات المصرية المتأخرة) مع إضافة نحو (7) علامات إلى الحروف اليونانية، فذهبت معرفة الناس بالخطوط القديمة وظلت مجهولة لدى العالم إلى أن حُلّت رموزها في بداية القرن التاسع عشر للميلاد كما سنذكره بعد قليل.

لم يأتنا فيما قبل عهد الإسكندر الكبير من عهود الحضارة المصرية إلا أشياء قليلة عن الشرائع المصرية والأنظمة القضائية. وباستطاعتنا أن نقول إنه لم تأتنا حتى الآن شريعة مدوّنة من مصر القديمة على طراز ما مرّ بنا من شرائع العراق. وفيما خلا الإشارات والأدلة غير المباشرة عن وجود بعض المواد المكتوبة في العهود القديمة فإننا لا نعرف شيئاً آخر عنها. وسبيلنا في معرفة شرائع مصر القديمة ينحصر في الوثائق القانونية. وإذا ما بدأنا بعهد المملكة القديمة فإننا لا نجد إلّا القليل من هذه الوثائق مما حفظ بأصله في ورق البردي من ذلك العهد وأقدم وثيقة في هذا الباب حكم قضائي مدوّن من عهد السلالة السادسة (2420 ـ 2294). وهذا يعني أن الدلالة على وجود القانون في مصر لم تظهر إلّا بعد عدّة قرون عن وجودها في الحضارة السومرية. ولعل ذلك يعزى إلى صدفة الاكتشاف. ومن الإشارات إلى القانون المصري الوثائق التي جاءتنا من كتابات القبور والمسلات التي تشير إلى وجود عقود قانونية. وتشير هذه الأدلة وغيرها إلى أن النظم القانونية في مصر القديمة تبدأ وهي في طور من النضج منذ أقدم عهود معرفتنا بها.

شيء عن النظم القانونية في عهد المملكة القديمة والوسطى (3188 ـ 1700 ق.م)

كان يحكم مصر في عهد المملكة القديمة حكومة ملكية مطلقة السلطان. فالفرعون كان المشرّع الوحيد ومصدر القانون. وقد عبد الفرعون وجعل إلٰهاً تجب طاعته، فكانت إطاعة أوامره واجباً دينياً مقدساً. ولم تقتصر سلطة الفرعون على أنه كان بيده السلطان المطلق على حياة رعيته وموتها، بل إنه يسيطر على جهودهم وعملهم وملكهم. وكانت الأرض بوجه عام ملكاً للفرعون ولكن مع ذلك كانت بعض الأراضي تخضع للمعاملات القانونية الفردية وتكون ملكية الأشياء المنقولة حرة أكثر من الأراضي والعقار، وكانت الأموال المنقولة قابلة للنقل من حوزة شخص لآخر بموجب عقد خاص. ومما يميز النظم القضائية بوجه عام من ناحية الملكية أنها تكاد تحرم الهبات وتحول

دون معاطاتها. وهكذا فعلت شريعة حمورابي. وكانت معاملات البيع والشراء تجري وفق عقود خاصة يزكيها ثلاثة شهود. وكان يشرف على العقد موظف خاص يلف «ورقة البردي» بعد كتابتها ويثبتها بالختم تحاشياً من التلاعب بها. وكانت الالتزامات تشفع بقسم باسم الملك بصفته إلٰهاً.

وكان للدين المصري تأثير عميق في نظمهم الشرعية ومعاملاتهم القانونية ومنشأ هذا التأثير من هذه الناحية الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت. فقد رأينا كيف كان المصريون القدماء يعنون بشؤون الموتى في قبورهم وفي تقديم القرابين والخيرات لهم. ولكي يضمن الميت إجراء تلك المراسيم له وقيام ورثته أو غيرهم بتقديم القرابين كان يكتب عقداً خاصاً بتنفيذ ما يحتاج إليه فيما بعد الموت. ولأجل القيام بتلك الشعائر على الوجه الأكمل نشأ عند المصريين طبقة خاصة من الكهنة تقوم بتلك الالتزامات وكان الميت يخصّص جزءاً من أملاكه يوقفه لشؤون ما بعد الموت وقد سمى المصريون الملك الموقوف لتلك الأغراض الدينية «الملك المؤبد»، وهذا هو الوقف الخيري في النظم القضائية في الإسلام. وشبيه بذلك أيضاً قانون العصور الوسطى في أوروبا حيث يقوم بوظيفة إدارة الأوقاف الخيرية رئيس الدير أو بعض كهنته.

ومما يحسن ذكره عن النظام القانوني في عهد المملكة القديمة والوسطى قانون الضرائب فيما يتعلق بواردات الدولة، وفرضت الحكومة نوعاً من ضريبة الأشخاص يدفعها الفرد، وقد خلّف لنا المصريون إثباتاً بالعوائل فيما يتعلق بدفع تلك الضريبة الشخصية، ويبدو منها أن الضرائب كانت تشمل جميع أفراد العائلة من جميع الأعمار.

عهد الأمبراطورية والعهود التي بعدها:

إن الوثائق القانونية التي جاءتنا من هذا العهد أكثر عدداً من العهد السابق. فقد جاءتنا وثائق فيما يتعلق بالمحاكم والقضاة، وكان يرأس بعض المحاكم وزير خاص. وجاءنا كذلك جزء من قانون يتعلق بالمراسيم الملكية

الكهنة:

إذا استعدنا إلى أذهاننا المنزلة الكبرى التي كان عليها الدين في حضارة وادي النيل من تغلغله القوي في حياة الدولة والشعب أدركنا مبلغ ما وصل إليه الكهنة من النفوذ والمكانة في تلك الحضارة، ومن الممكن القول إن وظائف الكهنة والتفرغ إلى هذه الوظائف والتخصص بها لم تكن واضحة قوية في

(1) إن هذه الأسطورة جاءت بهيئة رقية ضد لسع العقرب، وتنتهي بإرشاد في كيفية استعمالها (انظر المرجع المذكور في الهامش رقم 1 ص 113).

العصور القديمة، فكانت العادة أن أغلب الناس من ذوي المكانة في المجتمع يشغلون إلى جانب أعمالهم ووظائفهم الأخرى منصباً كهنوتياً، فالقضاة مثلاً كانوا كهاناً لإلٰه العدل وكان الأطباء كهنة الإلٰه «سخمت»، كما أن كثيراً من الوظائف الكهنوتية كانت متوارثة في الأسر النبيلة، وكان النساء يشتركن في الوظائف والأعمال الكهنوتية أيضاً.

ولكن إلى جانب هذه الوظائف الإضافية كانت هناك أعمال ومراسيم دينية تقتضي التفرغ لها والخدمة المستمرة من جانب رجال الدين المحترفين، وكان كبار الكهنة ذوي مراكز عالية في الدولة. واستمرت عادة إشغال كبار الموظفين مناصب كهنوتية إلى جانب وظائفهم المدنية في عهد الدولة الوسطى، ولكن تضاءل شأنهم وأخذت شؤون الدين تُحتكر من جانب كهنة محترفين متخصصين. وكان لكل معبد مجمع كهنوتي يشرف عليه من الوجهة النظرية أمير الإقليم أو حاكم الإقليم الموجود فيه ذلك المعبد. وكانت هيئة الكهنة في كل معبد متنوّعة الوظائف ومختلفة في الدرجات فمنهم الكاهن الأعلى ورئيس خزينة الإلٰه وكاتب بيت الإلٰه والكاهن المرتل الخ.

ووقع في عهد الأمبراطورية تبدّل أساس في مركز الكهنة، فقد ارتفع مركزهم في الدولة وازداد عددهم وطبقاتهم وثرواتهم ازدياداً كبيراً. ونستطيع أن ندرك ذلك في كهنة معبد الإلٰه «أمون» في طيبة، حيث صار لهؤلاء الكهنة نفوذ واسع وكان أبرز عامل في تعاظم نفوذ الكهنة في عهد الأمبراطورية ثراؤهم المفرط الذي حصلوا عليه في هذا العهد وكان مصدر هذا الثراء من الهدايا الجسيمة التي يقدّمها الملوك إلى معابد الآلهة وكانت هذه العادة موجودة منذ عهد المملكة القديمة إلا أنها ازدادت في مقياسها في عهد الأمبراطورية بالنظر إلى الثروات الهائلة التي جناها الفراعنة من حروبهم وغنائمهم خارج مصر، وكانت الهدايا لا حصر لأنواعها ولكن المهم منها يتألف من الحقول والبساتين والأملاك والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة والثروة الحيوانية الهائلة. فكانت هذه الأملاك الواسعة والنفوذ المتزايد تتطلّب

الإدارة الواسعة، فصارت المعابد في الواقع تؤلف ممالك مصغرة في إدارتها، ولا سيما معبد أمون في طيبة فكان لهذا الإلٰه إدارة عامة لأملاكه ودائرة خاصة للخزينة وإدارة للأراضي الزراعية العائدة له وإدارة لمخازن الحبوب وللماشية، وكان لكل إدارة رئيس وكتّاب وموظفون. كما أنه كان للمعابد إدارة خاصة للبناء والترميم وكان للمعابد أيضاً قوة عسكرية خاصة من الضباط والجنود، والسجون والمحاكم ولنا أن نتصور عدد المباني الملحقة بالمعابد لإيواء مثل هذا العدد الهائل من الموظفين، وهكذا بمرور الأزمان استطاعت طبقات الكهنة أخذ زمام السلطة في الدولة ولعل هذا ما حدا بأخناتون إلى الثورة على عبادة الآلهة القديمة ومناوأته لعبادة الإلٰه «أمون» وكهنته، ولكن هذا لم يفلح في صدّ التيار إذ عاد مرة أخرى نفوذ الكهنة في عهد «توت عنخ أمون»، وانتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي كبار الكهنة في عهد السلالة الواحدة والعشرين.

المعابد:

كان المعبد من مستلزمات الديانة وعبادة الآلهة، فلم يكن باستطاعة المصريين القدماء أن يتصوروا إلهاً من غير «بيت» خاص يعيش فيه وتقام فيه شعائره والأعياد الخاصة به، وتقام به الصلاة وتلحق به مخازنه لإدارة أملاكه. هذا وقد سبق أن نوّهنا بنوع من المعابد المصرية مثل المعابد «الجنائزية» الملحقة بقبور الملوك، سواء كانت هذه القبور بهيئة أهرام (كما في عصر الأهرام) أو على هيئة قبور اعتيادية كما ذكرناه فيما سبق. ونذكر هنا شيئاً موجزاً عن المعابد التي شيّدوها لعبادة الآلهة. وكان الموضع الذي يشيّد فيه المعبد «مكاناً مقدساً»[1]، ويظل موضعاً مقدساً تُقام فيه المعابد من الأدوار المختلفة فوق أسس المعابد وأنقاضها، وهذا هو السبب في أننا لا نعرف شيئاً

(1) اعتمدنا في إيجاز هذا البحث على ترجمة كتاب «مصر والحياة المصرية القديمة»، لأدولف أرمان وهرمان رانكه، ص 302 فما بعد.

يعتدّ به عن معابد الآلهة في عهد المملكتين القديمة والوسطى لأنها كلها تقريباً قد قامت فوقها أبنية عهد الأمبراطورية الضخمة الواسعة. ونذكر من أمثلة المعابد من عصر الأهرام المعابد التي شيّدها ملوك السلالة الخامسة للإلٰه الشمس «رع» في «هليوبوليس» وقد كشفت التنقيبات عن أحدها، فهو يختلف في شكله بوجه عام عن معابد الأزمان التالية فمثلاً لا يوجد فيه ما يميِّز المعابد النموذجية من هذه الأزمان، أي الحجرة المقدسة المظلمة التي يوضع فيها تمثال الإلٰه، وبدلاً من ذلك يكون معبد الشمس قائماً وسط فناء واسع يحيط به ممر من الحجر، وكان أبرز جزء في هذا الفناء رمز الإلٰه الشمس الذي هو عبارة عن مسلّة حجر تقوم على قاعدة عالية، حيث تتوهج قمة المسلة المدبّبة المموّهة بالذهب في أشعة الشمس، فكان هذا الرمز هو الذي يمثل الإلٰه الشمس، والهرم بموجب أحد التفاسير ليس إلّا رمزاً لهذا الإلٰه، ويقوم قرب هذه المسلة المقدسة «مذبح» ضخم كانت تُقدّم فوقه القرابين إلى الإلٰه الشمس في الهواء الطلق، ويقوم إلى جانب المعبد شكل سفينة عظيمة كانت جدرانها من اللبن، أما هذه السفينة فكانت لغرض سير الإلٰه الشمس فيها كل يوم في المساء، وكانت الجدران في جانب الممر المفضي إلى قاعدة المسلة تزين بنقوش ذات ألوان زاهية متنوّعة تمثل حياة الطبيعة في فصولها المختلفة.

والبقايا القليلة من معابد المملكة الوسطى تتفق في أسسها مع شكل معابد عهد الأمبراطورية. ولنصف الشكل العام لمعابد زمن الأمبراطورية. فأولاً هناك الممر أو الطريق المؤدي إلى المعبد، وكان مبلطاً ويحيط به من جانبيه صفان من تماثيل أبي الهول، ويقوم أمام المعبد صرح أو جملة صروح (Pylon) وكانت هذه عبارة عن بوابات ضخمة وترتفع مع الأبراج الحجرية المحيطة بميل أو انحدار قليل. وقد أقيمت هذه الأبراج للرهبة والزينة حيث جدرانها الملوّنة وساريات الأعلام والمسلات التي أمامها كل ذلك مما يحدث أثراً رهيباً في تأكيد قدسية الموضع.

ويأتي من بعد الصرح مباشرة فناء (ساحة) المعبد الواسع الذي تحيط به

(بوائك) ذات أعمدة ضخمة، ويقع في الجدار الخلفي لهذه الساحة المدخل إلى قاعة مؤلفة من الأعمدة وتستمد نورها من نوافذ في السقف. وفي هاتين الساحتين، أي الساحة الأولى وقاعة الأعمدة كانت تُقام الاحتفالات الدينية الخاصة بالإلٰه وتقدم فيهما القرابين. أما مقر الإلٰه فكان في المقصورة الوسطى المؤلفة من ثلاث مقاصير صغيرة مظلمة تقع خلف قاعة الأعمدة وكان يودع في المقصورة الوسطى قارب الإلٰه وتمثاله، وخصصت المقصورتان الجانبيتان لِزَوجة الإلٰه وابنه، وكانت هذه المقاصير الثلاث أقدس جزء في المعبد، وهو قدس الأقداس وقد كتب على جوانب أبوابها أن «على من يدخل المعبد أن يكون طاهراً» وقد كررت هذه العبارة أربع مرات. والعادة الغالبة أن لهذا الجزء المقدس من المعبد مدخل ثان في الجانب الخلفي، وتقع وراء ذلك حجرات عديدة مختلفة لخزن أدوات المعبد وحاجياته.

إن هذا الوصف الموجز لتخطيط المعابد المصرية من عهد الأمبراطورية ينطبق على جميع المعابد الكبرى مثل معبد الإلٰه أمون الشهير في الكرنك، أما المعابد الصغرى فكانت تشبه ذلك من حيث أسس تخطيطها، ولكن كانت تختلف في الاختصار في عدد الحجرات أقل مما هو موجود في المعابد الكبرى، وكذلك يُقال في عدد القاعات.

وكان المعبد يزيّن بالزخارف الملائمة لقدسية الإلٰه المعبود فيه فإذا استثنينا نقوش الجدران الخارجية، فإن مواضيع النقوش دينية صرفة فكانت الجدران والأعمدة تغطى كلها بصور الآلهة بألوان زاهية مما تجعل أرجاء المعبد ذا مظهر رائق. ويغلب تكرار الصور كثيراً، ومن بين المواضيع المكررة مثلاً صورة الملك الذي يرتدي رداءه التقليدي ويقف بين أيدي آلهة المعبد العظام والإلٰه الرئيس الذي بنى له المعبد حيث يقدم له هذا الإله رمز الحياة وتباركه الآلهة الأخرى وروعي في الكتابات أن تكون زخرفة. ومن المواضيع المعادة المكررة النقش الكتابي الذي يؤكد فيه الإلٰه للملك بقوله: «إني سأهبك سنين حتى الخلود، وحكماً على القطرين في سرور، وما بقيت أنا حياً فستبقى

أنت حياً أيضاً على الأرض، متألقاً كملك للوجه القبلي وملك للوجه البحري على عرش هورس الخاص بالأحياء، وسيظل اسمك ما بقيت الحياة باقياً مستمراً في الخلود جزاء وفاقاً على هذا الأثر التذكاري الجميل الكبير الطاهر المكين الجليل الذي أقمته لي حتى تحيا حياة الخلود» الخ. . . ومن يقرأ مثل هذا النقش وغيره من النقوش في جدران المعابد المصرية لا بدّ وأنه يحسب أن المعبد قد أُقيم لتمجيد الملك أكثر من تمجيد الإلٰه، ويؤيد هذه الفكرة أسماء المعابد التي صارت تقترن بأسماء الملوك.

بعهوده منذ عصور فجر السلالات السومرية وما قبل ذلك بقليل، كما كشفت لنا أيضاً عن البقايا المهمة في هذه المدينة في عهد سلالتها الأمورية، كالقصر الملكي الواسع[1] الذي عثر فيه المنقبون على أكثر من 20,000 لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري واللغة الآكدية ولكن لهجتها تميل إلى السامية الغربية (الأمورية) وهي تتضمن أنواعاً مهمة من الوثائق والسجلات الملكية والخاصة، ومنها الرسائل والوثائق التجارية والإدارية الخاصة بأحد ملوك سلالة «ماري» الأمورية المسمى «زمري ـ ليم» (1730 ـ 1700 ق.م)[2]، وكان هذا آخر ملك من هذه السلالة حيث قضى على مملكته حمورابي البابلي. إن هذه الوثائق المدوّنة قد ألقت ضوءاً كاشفاً على جوانب مهمة في تأريخ بلاد الشام والأموريين بوجه خاص في الألف الثاني ق.م. وتأريخ الشرق الأدنى بوجه عام، ففيها ندرس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمعتقدات الدينية والعلاقات الدولية بين سوريا ودول وادي الرافدين وعن تعاصر ملوك ذلك الزمان[3]، كما فيها نواح مهمة عن الحياة السياسية. فندرس منها مثلاً أن مدينة ورد اسمها بهيئة «خلبو» (أي حلب) كانت عاصمة مملكة أمورية اسمها «يمخد»، وأن أحد ملوكها كان اسمه

---

(1) إن هذا القصر يعدّ من المآثر المهمة في تأريخ حضارات الشرق الأدنى فهو قصر واسع يشغل مساحة تقدّر بنحو ستة «إيكرات» ووجد فيه أكثر من (300) حجرة زيّنت جدران الكثير منها بصور ملوّنة زاهية كما وجدت فيه عدا الساحات والمرافق الأخرى مواضع خاصة للحمامات، ووجدت في بعض الحجرات دكاك ومناضد لعلها تشير إلى المدرسة.
(Hitti, **Op. Cit.**, 68; **Syria,** XVII (1936) XXIX (1952); Frankfort, **Art and Architecture in the Ancient Orient** (1954).

(2) حول هذه الوثائق انظر مجلة:
(Syria, XIX (1938) XX (1939); J.R. Kupper, **Archives royales de Nari** (1948).

(3) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على ضبط تسلسل أدوار التأريخ في العراق القديم وأدوار السلالات الحاكمة أن الباحثين المحدثين استندوا من جملة ما استندوا إليه من المصادر إلى وثائق مدينة ماري ولا سيما ما يتعلق منها بالتعاصر بين حمورابي وبين ملوك سلالة ماري.

«يريم ـ ليم»[1]، وأن مدينة «جبلا»[2] (وهي جبيل) كانت من المراكز الصناعية المهمة للنسيج وأن مدينة أخرى باسم «قطنا»[3]، كانت مركزاً تجارياً مهماً لسلالات الحكام الأموريين.

إن هذه المآثر وغيرها لتشير إلى ازدهار ملحوظ كانت عليه الدول الأمورية، ومما لا مراء فيه أن تكون أهم عوامل هذه الازدهار زراعتها الجيدة المعتمدة على خصب أراضيها وكثرة أمطارها المساعدة والاعتناء بالشؤون الزراعية، وإلى هذا العامل كان هناك عامل خطير آخر هو ازدهار تجارتها وعلاقاتها التجارية مع أقطار الشرق الأدنى كما أنها كانت واسطة للتجارة المهمة بين أقطار البحر المتوسط وبين بلاد ما بين النهر، فكانت بذلك أيضاً واسطة لنشر الثقافة والتأثيرات الثقافية.

والجدير بالذكر بمناسبة كلامنا على الوثائق التي وجدت في القصر الملكي في ماري أن الأموريين لم يخلفوا لنا كتابات مهمة بلغتهم الأمورية الخاصة[4] (أو بالأحرى بلهجتهم) وإنما اتخذوا اللغة البابلية القديمة التي شاعت آنذاك كلغة رسمية للتدوين، ولكن مع ذلك فإن لغتهم شبيهة باللهجة الكنعانية بحيث يمكن عدهما لهجتين متقاربتين، اللهجة الكنعانية الشرقية (أي الأمورية) واللهجة الكنعانية الغربية (أي الفينيقية). أما ديانتهم فهي تشبه في أصلها ديانة الأقوام السامية البدائية التي تدور بالدرجة الأولى على عبادة الظواهر الطبيعية وتشخيصها بهيئة آلهة ذات صفات آدمية. كما أنهم اتخذوا بعض الآلهة الشهيرة من حضارة وادي الرافدين مثل الإلهة عشتار[5]. وكان من

---

(1) انظر: Albright in The Bullt. of the Amer. Sch. of Orient. Res. No. 67 (1937)

(2) بضم الجيم الملفوظ كافاً فارسية وتسكين الباء.

(3) بفتح القاف وفتح الطاء (أو تسكينها)، وتقوم خرائبها الآن في التل المعروف باسم «المشرفة» شمال شرقي حمص.

(4) من الأشياء التي خلفوها في لغتهم أسماء ملوكهم وحكّامهم وأسماء جملة مواضع في سوريا.

(5) من الصور الطريفة التي وجدت تزين جدران القصر الملكي في ماري صورة تمثل أحد ملوك المدينة (الذي يرجّح كونه «زمري ـ ليم») وهو يتسلم شارات السلطان من الإلهة عشتار (انظر الصورة المنشورة في حتي «تأريخ سوريا» (Hitti, Op. Cit., p.69)

آلهتهم الخاصة الإلٰه «أمورو» (مارتو)[1] ومعه آلهة أخرى جاءتنا أسماؤها مع الآلهة الكنعانية (حيث حافظ الكنعانيون على الديانة الأمورية وعلى آلهتها) مثل «حدد» (حداد أو هدد)[2]، إلٰه المطر والزوابع، ومثل وهو مقترن مع الثور وشرارة الصاعقة. ويرجّح كثيراً أن نفس هذا الإلٰه قد عُبد من بعد ذلك في جهات بلاد الشام باسم «بعل». ومن آلهة الأموريين أيضاً إلٰه جاء اسمه عند الفينيقيين باسم «رشف» وسماه الآراميون «ريشوف»، والمرجّح أنه من الآلهة ذات العلاقة بالنار، وقد اتخذه المصريون في عهد الأمبراطورية. وعبدوا أيضاً إلٰهاً مهماً دخلت عبادته إلى حضارة وادي الرافدين هو الإلٰه «داجون» أو «دجان» (بلفظ الجيم كافاً فارسية) وأصله من الآلهة المتعلقة بالخصب والطعام[3]. ويعزى إلى الأموريين أنهم هم الذين أدخلوا إلى أنحاء سوريا الجنوبية عبادة نوع من الأنصاب كانت بهيئة أعمدة من الحجر تنصب قائمة في مواضع مطهرة كالكهوف في الغالب مع مذبح من الحجر[4] والمرجّح كثيراً أنهم هم الذين أدخلوا إلى بلاد الشام عادة تقريب الابن البكر وكذلك عادة التضحية في أسس البناء (تضحية الأطفال الآدميين) وهي عادة استمرت إلى زمن العبرانيين.

ومما لا شك فيه أن الدويلات الأمورية قد استعادت استقلالها من بعد عهد ضمها المؤقت إلى أمبراطورية حمورابي وظلّت كذلك إلى زمن تأسيس الأمبراطورية المصرية، فدخلت في العلاقات الدولية المعقدة التي تكوّنت

---

(1) وكانت عبادة هذا الإلٰه معروفة في وادي الرافدين. وكان للإلٰه «أمورو» الأموري إلهة زوجة هي «عشرتا» (أو اشيراتا)، إلهة الحب والشهوة والقوة، وهي شكل من أشكال عشتار البابلية (انظر الأسطورة الخاصة بزواجه في S. N. Kramer, **Sumerian Mythology**.

(2) مما لا شك فيه أن يكون هذا الإلٰه نفس الإلٰه الذي عُبد في ديانة العراق القديم باسم «أدد» إلٰه الرعد والزوابع والصواعق، ولا يعلم بوجه التأكيد هل أصل «أدد» البابلي من الإلٰه السوري أم العكس، ولعل الرأي الأول هو المرجّح. وسمي «حدد» أو «أدد» باسم آخر هو «رمان أو رمانو» أي المرعد.

(3) لقد وجد المنقبون في رأس شمرا (أوغاريت) معبداً خُصّص لعبادة هذا الإلٰه.

(4) انظر التوراة (سفر الخروج 20: 25).

آنذاك بين دول الشرق الأدنى ولا سيما بين المصريين والبابليين والآشوريين والحثيين. ودخلت تحت النفوذ المصري على ما بيّنا في كلامنا على الأمبراطورية المصرية في تاريخ مصر. ومما يقال بوجه الإجمال إن بلاد الشام أصبحت مدار النزاع والكفاح بين الأمبراطورية المصرية وبين الأمبراطورية الحثية المنافسة لها في بلاد الشام التي أصبحت من جرّاء هذا التنازع في فوضى ضاربة، فقسم منها كان موالياً لمصر وقسم حافظ على استقلاله وقسم كان متقلباً في ولائه فمن حوادث هذا العهد الطريفة في سوريا ما نقرؤه في الرسائل الشهيرة (رسائل العمارنة)[1] عن علاقة أحد الأمراء الأموريين المسمى «عبد ـ عشرتا» (أو عبد ـ اشرتا) الذي كان يتظاهر في ولائه وتبعيته لمصر[2] وينتهز فرص النزاع بين الحثيين والمصريين على بلاد الشام. وكان هذا يحكم في مملكة مركزها في أعالي نهر العاصي، ومع تظاهره بالولاء للفرعون المصري إلا أنه كان يساعد الحثيين في غزوهم إقليم السهل الكائن بين أنطاكية وجبال «أمانوس»، كما أنه استولى لحسابه الخاص على مدن كثيرة في الساحل وفي داخل البلاد، وخلفه ابنه المعروف باسم «عزيرو» الذي سار على خطة أبيه ووسع من حدود مملكته أيضاً في حماه وإقليم دمشق. وكان للمصريين على بلاد الشام والٍ من قبلهم اسمه «رب ـ عدي». وكان هذا يرسل الرسالة تلو الأخرى إلى سيده الفرعون المصري مبيناً فيه مؤامرات «عبد ـ عشرتا» وابنه

---

(1) جاءت أخبار هذه العلاقات المعقدة في الرسائل الشهيرة باسم «رسائل العمارنة» المدوّنة بالخط المسماري واللغة البابلية، وهي الرسائل التي قلنا إنها الرسائل التي تبادلها ملوك الشرق الأدنى والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وولاتهم في بلاد الشام، والرسائل المتبادلة بين ملوك مصر وملوك بابل وآشور، انظر نشرها في:

J.A. Knudtzon, **Die el-Amarna Tafein** 2 vols. (1908).

(2) انظر الرسالة رقم 66 في ذات المصدر المنشورة فيه تلك الرسائل. وهي الرسالة التي أرسلها إلى سيده الفرعون المصري أمنحوتب الثالث (1375) يظهر فيها ولاءه ويتعهد بولاء الأموريين أيضاً.

«عزيرو»[1] الذي وجد الفرصة سانحة على أثر ضعف الأمبراطورية المصرية في عهد الملك أمنحوتب الرابع (وهو أخناتون صاحب الثورة الدينية في مصر) فتشجع في غزو المدن والأقاليم السورية التابعة إلى مصر على الرغم من تحذير الوالي المصري «رب ـ عدي» للبلاط الفرعوني[2]، ويبدو أن «عزيرو» قد اتفق مع الحثيين على اقتسام البلاد السورية، ولكن قام بذلك بدهاء إذ استطاع أن يخدع البلاط المصري في ولائه حيث ذهب بنفسه إلى مصر مؤكداً خضوعه ولكن لما عاد إلى بلاده استمر في تعاونه مع الملك الحثي «شبوليوليوما» ونجح الطرفان في زعزعة أسس الأمبراطورية المصرية في سوريا بحيث اضطرت مصر إلى التخلي عن سوريا الشمالية وعن بلاد فينيقيا، وثبت الحثّيون فتحهم لشمالي سوريا وسوريا الوسطى.

الكنعانيون والفينيقيون:

لقد سبق أن نوّهنا بالصلة القريبة بين الأموريين وبين الكنعانيين[3] أو

ومما يحسن ذكره عن النظام القانوني في عهد المملكة القديمة والوسطى قانون الضرائب فيما يتعلق بواردات الدولة، وفرضت الحكومة نوعاً من ضريبة الأشخاص يدفعها الفرد، وقد خلّف لنا المصريون إثباتاً بالعوائل فيما يتعلق بدفع تلك الضريبة الشخصية، ويبدو منها أن الضرائب كانت تشمل جميع أفراد العائلة من جميع الأعمار.

عهد الأمبراطورية والعهود التي بعدها:

إن الوثائق القانونية التي جاءتنا من هذا العهد أكثر عدداً من العهد السابق. فقد جاءتنا وثائق فيما يتعلق بالمحاكم والقضاة، وكان يرأس بعض المحاكم وزير خاص. وجاءنا كذلك جزء من قانون يتعلق بالمراسيم الملكية

الخاصة بالبلاط (نظام التشريفات)، فقد ذكر في أحد هذه الأجزاء ما ينبغي للملك أن يقوله عند تعيينه لوزيره، ويذكر جزء آخر الأنظمة الخاصة بوظائف الوزراء وواجباتهم. وجاءت في مسلة الملك «حرمحيب» (1349 ـ 1314 ق.م) في الكرنك مادة قانونية أصدرها الملك بحق بعض الموظفين الذين يعملون وفق أهوائهم وتحكماتهم، وقد فرض فيها العقوبات الصارمة. ومما يمتاز به هذا العهد النظام المركزي في الإدارة، يدل على ذلك إشراف الوزير على أعمال كثيرة كان يشرف عليها في عهد المملكة الوسطى بعض الموظفين. وجاءنا من عهد الأمبراطورية والعهود التي أعقبته أنواع كثيرة من عقود المداينات، والذي يدهش فيها أن الربا كان فاحشاً بحيث كان يصل في كثير من الحالات إلى مائة بالمائة سنوياً، وكان الربح يُضاف في نهاية السنة إلى رأس المال. وكان المدين يقدم ضمانات بالإيفاء، ومن الضمانات الطريفة أنه يتعهد في حالة عدم الإيفاء أن يجلد مائة جلدة، وهذا يذكرنا بالعقوبات القاسية الواردة في القانون الآشوري التي يتعهد بموجبها المدين في بعض الحالات بأن يضحي ابنه الأكبر إلى الآلهة. ولدينا سجل طريف عن قضية جريمة وقعت في عهد السلالة العشرين تلقي لنا ضوءاً على طريقة محاكم القضاء والشرطة وكيفية تعقّب المجرمين ومحاكمتهم في عصر رعمسيس التاسع في حدود (1156 ـ 1136 ق.م)، والقضية تدور على مطاردة عصابة للصوص المقابر في مدينة طيبة أي في قلب العاصمة، وكان الوزير على رأس الحكومة كما كان المعتاد في أغلب عهود التأريخ المصري، ويحكم باسمه في نفس العاصمة حاكمان أحدهما أمير القسم الشرقي ويدير القسم الغربي حاكم بوليس خاص للإشراف على مدينة الأموات وقد جاءتنا القضية مدوّنة بتفاصيلها[1].

ولا نعرف كيف كانت عقود الزواج في هذا العهد، إنما جرت العادة

---

(1) انظرها في كتاب «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكه وترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص 130، فما بعد.

على ضمانات مالية لحماية حقوق الزوجة المالية وحماية أبنائها. وكنا ذكرنا أن الزواج عند البابليين لم يكن يعدّ زواجاً شرعياً بدون عقد ومهر، كما أشار إلى ذلك قانون حمورابي، ولا نعلم هل كان الزواج عند المصريين يجري على هذا النمط. وإذا أراد الرجل أن يتزوج بعد وفاة زوجته فعليه أن يتّفق مع أبنائه من الزوجة الأولى فيعطى بموجب ذلك الثلثين من الضمان المالي للأولاد ويأخذ الزوج الثلث الباقي. وكان الطلاق ممكناً بعد دفع الضمان.

وكانت المحاكم عادة تتألف من الوجهاء في كل موضع وإقليم ويرأسها موظف في أثناء المحاكمة، ويرأس مثل هذه المحاكم في العاصمة الوزير نفسه، وفي حالات استثنائية، مثل المؤامرة لاغتيال الملك رعمسيس الثالث (1204 ـ 1172)، أمر الفرعون بتأليف محكمة خاصة. ونشاهد في أصول المرافعات تقدماً وتطوراً منذ عهد المملكة القديمة، حيث طغى أسلوب الكشف عن الحقيقة على الأسلوب الرسمي المقتصر على البنية الرسمية، فقد اتخذت جميع أنواع البراهين والأدلة وأخذ القضاة في نظرها ونقدها. وكانت القرارات تُعطى بهيئة تصريح موجز من المحكمة بأن فلاناً في جانب الحق والفلان الآخر في جانب الباطل، ويلحق ذلك اعتراف المحكوم عليه بما يترتب عليه من نتيجة الحكم.

ومما يُلاحظ في القانون الجنائي القسوة المتناهية في العقوبات، فكان التعذيب مألوفاً في باب العقوبات، وكان يشمل في بعض الأحايين الشهود أنفسهم ويبدو أن أنواعاً غريبة من عقوبات الإعدام كانت تُستعمل في بعض الأحايين، مثل ترك المحكوم عليه لتأكله التماسيح، وقد يحصل بعض المحكومين على امتياز خاص بأن يسمح لهم بالانتحار، ونسمع بعدد ممّن عوقبوا بقطع أعضائهم أو بترها ثم وضعوا في الأعمال الشاقة في معسكرات اعتقال خاصة. ويشبه العرف في القانون المصري شريعة حمورابي بالنسبة إلى التعويض عن السرقات بدفع الشيء المسروق مضاعفاً عدّة مرات، ونجد مثل هذا العرف في أقدم القوانين الرومانية.

وبإمكاننا أن نجد أمثلة للقانون الدولي في عهد الأمبراطورية[1]، فقد مرّ بنا فيما سبق ذكر المعاهدة الشهيرة التي أُبرمت بين الفرعون رعمسيس الثاني (1297 ـ 1231 ق.م) وبين الملك الحثي «حاتوسيل» الثالث. وقد جاءنا نص هذه المعاهدة الدولية مدوّناً باللغة البابلية وبالخط المسماري، وهي معاهدة صلح وحلف تتضمّن المساعدات العسكرية بين الطرفين المتعاهدين، وقد اتّفق الطرفان كذلك على تسليم المجرمين واللاجئين من كل بلد إلى بلد الطرف الثاني.

وتأثّرت مصر بالقوانين اليونانية من بعد فتوح الإسكندر في الشرق وكذلك أثرت مصر في تلك القوانين التي طبّقت على المكدونيين الذين سيطروا على القطر، وحدثت تغييرات في العرف القانوني في عهد البطالسة، خلفاء الإسكندر في مصر وبخاصة في تشكيل المحاكم وفيما عدا ذلك فإن ملوك البطالسة على ما يبدو لم يتدخلوا تدخلاً كبيراً في قانون مصر الخاص، وقد أصبح القانون الجنائي في هذا العهد أخفّ قسوة وأكثر إنسانية من ذي قبل[2].

---

(1) لقد سبق أن أشرنا إلى أقدم تحكيم في النزاع بين الدويلات في عصر فجر السلالات في العراق القديم.

(2) حول القوانين المصرية راجع المأخذ السهل الآتي:
The Legacy of Egypt, chap, 8.

بعض الاحتفالات والرسوم الخاصة بالملكية:

مع أن كثيراً من الرسوم والطقوس الدينية لها علاقة بالملك والملكية إلا أنه هناك جملة احتفالات ورسوم خاصة بالملك نذكر منها الاحتفال بالتتويج والاحتفال الخاص المعروف باسم عيد «سيد». أما الاحتفالات الخاصة بإعلان الملك الجديد وتتويجه فيمكن الوقوف عليها من جملة مصادر مهمة أهمها المنحوتات البارزة الممثلة لمشاهد الاحتفال التي جاءتنا من عهد الأمبراطورية والنصوص الكتابية الشهيرة باسم «النصوص الهرمية» (Pyramid Texts) والمصادر الخاصة بوصف تمثيلية التتويج.

وهناك نوعان من الاحتفالات الخاصة بتبوّء الملك الجديد للعرش أحدهما يخص إعلان الملك الجديد والآخر يخص تتويج هذا الملك الجديد، والغالب أن الحادثتين أو الاحتفالين لا يقعان في زمن واحد. فضماناً لصفة الملوكية وتأكيداً لألوهيتها وقطعاً لظهور منازع من أمراء البيت المالك كان الملك وهو في أثناء حكمه في الحياة يعيّن خليفته على العرش على هيئة نائب له أو شريك له في الحكم (Coregent)، وكانت هذه العادة متّبعة بين جميع ملوك المملكة الوسطى وملوك الأمبراطورية بحسب ما جاءنا من نصوص، ولعل ذلك كان متّبعاً في العهود القديمة أيضاً. ويعقب تخليف الملك الجديد بعد موت الملك والانتهاء من مراسيم دفنه (ويستغرق ذلك زمناً طويلاً) الاحتفال بالتتويج (Coronation) الذي يثبت انتقال السلطة إلى الملك الجديد. وكانوا يختارون ليوم التتويج في الغالب أما في بداية الصيف (وهو الفصل الأول من التقويم المصري) أو الخريف (الفصل الثاني)، وتخصص الفترة ما بين موت الملك وتتويج الملك الجديد في تهيئة دفن الملك وتهيئة معبده وتحنيطه ثم دفنه. وفي اليوم الذي يسبق التتويج يحتفلون بإنهاء مراسيم الدفن، وحالما يوضع الملك الراحل في لحده يكون ذلك بعثه وقيامته وانتقاله إلى ملكوت الإلٰه الشمس. فكان الدفن عند المصريين القدماء يرادف القيامة أو الحياة الأخرى، ويصير الملك الملحود الإلٰه «أوسيريس» بالتجسد والملك

المتوج «هورس». وقد خلف لنا المصريون القدماء عدا الوثائق العامة المتعلقة بتعيين خليفة الملك وتتويجه وثيقة خاصة تصف لنا بصورة واقعية خلافة «سنوسرت» الأول، من ملوك المملكة الوسطى، وقد جاءت على هيئة احتفال أو تمثيلية كان يقوم بأدوارها الملك الذي سمي في هذه الوثيقة بعبارة «الملك الذي سيحكم» وأمراء الأسرة المالكة وكبار الموظفين والكهنة، وبالإمكان تقسيمها إلى ستة فصول يحتوي كل فصل منها على عدّة مشاهد، ويحتوي الفصل السادس منها على الاحتفال بيوم التتويج[1].

ومن الاحتفالات المهمة الخاصة بالملك العيد المسمى بعيد «سيد» أي عيد الثلاثين (The Sed Festival) ولهذا العيد علاقة بالإله «أوسيريس» إذ المرجّح أن الملك إنما كان يحتفل به لكونه قد تجسّد بالإله أوسيريس، فيحتفل بحياته بهذه الصفة وهو في قيد الحياة وفي الغالب بعد مضي ثلاثين عاماً على تبوئه العرش، ويرجع زمن ممارسة هذا العيد إلى أحد ملوك السلالة الأولى القدامى المسمى «دين سيمتي» الذي يرجّح أيضاً أنه أول ملك اعتقد فيه بتجسده بالإله «أوسيريس» حيث اتخذت عبادته أهمية خاصة في عهد هذا الملك، وتعزو إليه المآثر أن فصولاً من «كتاب الأموات» قد دوّنت في عهده، كما وجد له لوح منقوش بكتابة هيروغليفية وصورة للملك تمثّله في حالة رقص أمام الإله «أوسيريس»، مما يحتمل أن يكون هذا جزءاً من مراسيم عيد «سيد»[2]. ومع أن اسم العيد يعني «عيد الثلاثين» إلا أن كثيراً من الملوك احتفلوا به مرات متعددة بفترات أقصر، وخصص للاحتفال به أول شهر من

---

(1) لقد ترجمت هذه التمثيلية بالمصطلح الإنجليزي: «The Mystery Play of Succession».
«أي رواية خلافة الحكم السرية»، ولا يسع مجال هذا الكتاب حتى إيجازها فنحيل من يريد الوقوف عليها إلى أحدث المصادر والترجمات في المرجع الآتي:
Frankfort, **Kingship and the Gods,** ch. 11.

(2) انظر: **British Museum Guide,** 282-83.
وحول هذا العيد انظر:
Journal of Egyptian Archeology, (1944), 30 ff.

الفصل الثاني المسمى «فصل الظهور» أي ظهور الخضار والحياة من بعد فيضان النيل مما يشير إلى ارتباط العيد بعبادة «أوسيريس» الذي يمثّل حياة الإنبات والخضار بوجه عام. وكان الملك يقوم في هذا العيد بعمل أشياء كثيرة منها إقامة معبد جديد أو إقامة مسلة من الحجر، وإذا لم يشيَّد معبد جديد فتخصص إحدى قاعات المعابد الشهيرة، كما تُخصص الهدايا للإله، وتكون عاصمة الملك في شغل شاغل في التهيؤ والقيام بعمليات التطهير والتنظيف وإضاءة المواضع المعدّة للاحتفال، وتحمل السفن تماثيل الآلهة من مختلف أنحاء القطر حيث يستقبلها الفرعون ورجال بلاطه، وكذلك يحضر كبار موظفي الدولة من الأقاليم.

وبعد الانتهاء من الاستعدادات وفي اليوم الأول من فصل «الظهور» يبدأ الاحتفال الرسمي بسير موكب مهيب يمشي فيه الملك وتماثيل الآلهة وكهنتها، وتقدّم القرابين إلى الآلهة، وبعد ذلك يتقدم الكهنة من الملك وهو على عرشه وهم يحملون رموز الآلهة معهم، ويرد الملك زيارتهم بأن يزور كل إله في مزاره الخاص، ويستمر هذا التزاور المتبادل طيلة يومين. ومن بعد ذلك يقدم إلى الملك كبار الدولة وأمراء السلالة المالكة خضوعهم وهو على عرشه[1].

وقبل أن ننهي بحثنا عن الملك وننتقل إلى ذكر أشياء موجزة عن الموظفين التابعين له ننوّه هنا بشيء مهم يتعلق بألقاب الملك الرسمية مما له علاقة بجغرافية مصر. فقد سبق أن رأينا انقسام وادي النيل إلى القسمين المتميزين الوجه البحري، وهو الدلتا الواسعة الرقعة، ثم الوجه القبلي مما تحت القاهرة، المكوّن من شقة وادي النيل الضيقة. ومع اختلاف هذين القسمين وتميزهما بعضهما عن بعض في أوجه كثيرة إلا أنهما يجب أن يؤلفا وحدة اقتصادية وسياسية لاشتراكهما في المصالح الكثيرة واعتمادهما على مصدر واحد من المياه هو النيل، فكان من المشاكل المهمة التي اعترضت

---

(1) انظر موجز وصف العيد وتحليل مغزاه وأهميته في المرجع:
H. Frankfort, **Kingship and the Gods**, ch.6.

الحضارة المصرية في أثناء نموّها توحيد هذين القسمين من القطر في مملكة قومية موحدة. وكانت هذه الوحدة من المظاهر المرغوبة في نظام الملكية ومقياساً لازدهار الحكم وقوّته. وكان لاختراع نظام الحكم الذي يدور على فكرة «الملك الإلٰه» أثر بالغ في توحيد هذين القسمين، وصار من ألقاب الملك الرسمية المهمة لقب «ملك القطرين» حيث جمع في تاجه شعاري القسمين، حيث لقب «بالسيدتين» إشارة إلى جمع الآلهتين الحاميتين لكل من مصر العليا والسفلى.

حكومة الفرعون:

إذا كان الملك مصدر الحكم والسلطة ومنبع العدالة فمن البديهي تعذر